«ثريا» ... التجربة الرائدة

بقلم خيري شلبي

كثيرا ما يتوارى عن بقع الضوء جنود مجهولون . وعلى عظم ادوارهم التي يؤدونها ، يقضون حياتهم خلف ستار ، او قل ان الزمن او الظروف تسدل عليها ستر النسيان ، ربما لفترة او لفترات ، وربما الى الابد. الا ان ضمير البشرية دائما يقظ لا يغفل عن روادها وصناع حياتها ، اذ ما يلبث ان يغوص في اعماق التجاريب والسنين .. ليعود الينا بهم وفي خطوه يلمع بريق انتصار كأنه عثر للبشرية على زاد جديد.

وعيسى عبيد واحد من اولئك الناس . رائد من رواد قصتنا المصرية الحديثة ، الاصائل . كان قد انحجب عنا زمنا كنا فيه مشغولين بقضايا عديدة لا تنتهي ، نتجت عن انصهارنا في بوتقة الحماس والغليان اثناء البحث عن الطريق قبل ان نهتدي اليه اخيرا في ضوء ثورتنا المباركة . ثم اذا بالاستاذ يحيى حقي يطل علينا بكتيب صغير، عن فجر القصة المصرية الحديثة وفيه يفرد فصلا كاملا عن تلك الشخصية الهامة التي تعتبر فعلا دعامة من دعائم قصتنا . والحق ان بعضنا لم يكن ، بانكاد ، يعرف عيسى عبيد ، او على الاقل لم يقرأ له شيئا وان كان فقط ، «يسمع» عنه . وليس من شك في اننا لا نعتبر مقصرين اذ ان مؤلفاته لم تكن قريبة من ايادينا . الى ان تكرم الناقد الاستاذ عباس خضر فبعث لنا تلك الشخصية واطلعنا على دورها في القصة المصرية، بمقدمة ضافية كان لها فضل كبير في تفتح اعيننا على اهمية شخصية كعيسى عبيد وشقيقه شحاته .

ولسنا هنا بسبيل التأريخ للقصة المصرية ولكننا نود ان نقصر الحديث على قصة « ثريا » باعتبارها ـ في تقديري ـ نقطة انطلاق هامة وبارزة في جذور قصتنا الحديثة . فلو اننا عدنا الى الوراء عبر صفحات التاريخ ، وبالتحديد الى الفترة التي كتبت فيها « ثريا » ، لاتضح لنا انها تعتبر تجربة رائدة سطعت كومضة شعاع انارت الطريق امام القصة الواقعية الحديثة ، ومن ثم حملتها رسالة كبرى وهي الاهتمام بقضايا العصر وانعكاساتها على المجتمع والافراد . حتى ان الاستاذ يحيي حقي يقول « انه لا يعرف احدا غير عيسى عبيد تولى من ذلك العهد مهمة رسم الحدود للقصة الحديثة في مفهومها وموضوعها وشكلها » . ومن الواضح ان عيسى عبيد كان مخلصا في ربطه « بين انتفاضة الامة عام ١٩١٩ من الوجهة السياسية بضرورة انبعاثها في انتفاضة مماثلة في الاداب والفنون .

كان عيسى عبيد يتمنى تلك الامنية لان السوق الادبية والفنية في ذاك الوقت كانت فعلا مصابة بالكساد . فاغلب الكتاب المصريين الذين يمارسون الانتاج الفني تاهوا في تهويماتهم الخيالية وابتعدوا بذلك عن الارض التي يقفون عليها . وكذلك الترجمة ، غرقت في اسفاف شديد فكانت تنقل روايات مثل سنكلر وجونسون وطرزان وما الى ذلك من «تلك الروايات المفعمة بالحوادث المدهشة الرائعة والمفاجآت الغريبة البعيدة عن الحقيقة بعد السماء عن الارض (١) » ، مما خلق في ذهن القارىء نوعا من الاعتياد ابعده عن الفن ، واصابه بالجهل .

وكان من الطبيعي ـ في جو كهذا ـ الا تجد قصص عبيد رواجا . وقد فسر عيسى عبيد ذلك بسبب الفارق الكبير الذي يفصل قصصه عن الزاد الادبي الذي يقدم للجمهور ، فاذا كان القارىء انذاك يلهث خلف الحواديث المليئة بالاثارة والتفاهة ، فقصص عيسى عبيد وامثاله من الطليعة التي كان يتمنى لها ان يتسع المجال امامها ، قصص « مبنية على قاعدة الحقائق الدقيقة الصادقة المجردة » . غير ان عيسى عبيد يلتمس للجمهور عذرا ، ويلقي المسئولية على النقاد والصحافة ، وقد خص الجرائد بالذات بالنصيب الاوفى من سخطه ، فلقد كان المجتمع يمر بفترة مضطربة غير مستقرة ، والوقت « مضطرب ومكفهر قد قبض فيه على زعيم الامة ووكيلها الشرعي الذي تشرفت باهداء الكتاب اليه وكانت الافكار متهدجة ومندفعة في السياسة والجرائد مشحونة بعرائض سحب الثقة فلم تنوه بكلمة واحدة عن كتاب يخلق نوعا جديدا في الادب المصري العصري وهذا مما يؤسف له كثيرا لانها قصرت تقصيرا مخجلا في اداء اهم واجباتها » (٢). كانت القصة اذن في محنة وكان عليه ان يتبنى قضيتها كيما تتحقق امنيته التي اودعه اهداءه في كتاب احسان هانم. ولانه مؤمن بقضية القصة ودورها ، نراه يلم بكل جوانبها ، ويركزها في ان (٣) الجدب في حقل القصة راجع الى ان التقاليد قضت تقريبا على الاختلاط بين الجنسين ، وان الكاتب المصري لم يتمرن بعد على الملاحظة والتحليل النفسي وهما ملكتان تنموان بالخبرة الشخصية الطويلة ، لذلك ينبغي ان يدرس شخصياته من حيث المزاج والوراثة والبيئة ، فلا بد له اذن من الالمام التام بعلم النفس . يضاف الى ذلك ايضا عيوب الكاتب المصري : ضعف ملكة الوصف وميله الى تجميل الطبيعة مع ان الفن هو تصوير الحقائق عارية مجردة ، والتزام الكاتب للصدق في الوصف سيجنبه تقليدا اعمى لادب العرب القديم ، اي ان عيسى عبيد ينادي بالريالزم بدلا من الايديالزم ـ بادب واقعي بدلا من ادب وجداني ـ هذا الادب الواقعي سيجد غذاءه في اداب الغرب كما يجد دفعته الى الامام في انتفاضة سنة ١٩١٩ ، وسيؤدي ذلك الى تكون الادب العربي عندنا بطابع مصري محلي ، اما غاية القصة فيجب ان تكون التحري عن الحياة وتصويرها بامانة واخلاص كما تبدو لنا ، وجمع اكبر كمية من الملاحظات والمستندات بحيث تكون القصة عبارة عن « دوسيه » يطلع فيه القارىء على تاريخ حياة انسان او صفحة من حياته ، ويتخذها الكاتب ذريعة لدرس اسرار الطبيعة البشرية وخفايا القلب الانساني الغامض، والتطور الاجتماعي والاخلاقي ، وعوامل الحضارة والبيئة والوراثة ـ مع التخطيط في ابداء الحكم ، لان مهمة الكاتب هي تشريح النفوس البشرية وتدوين ما يكتشفه من ملاحظات تاركا الحكم في ذلك للقارىء ليستخلص منه المغزى الذي يرمي اليه الكاتب بخفة ومهارة دون ان يجهر بالمناداة به ، فلا معنى للوعظ المنبري في القصص ، وللقصة بعد ذلك ان تتخذ الشكل الذي يلائم الموضوع ، وسياق القصة امر ثانوي ما دامت اغراضها قد توفرت لها . ويضيف عيسى عبيد (٤) ، ان مما حمله على المثابرة على طبع مؤلفاته في تلك الازمة الشديدة وكساد سوق الادب وانشغال الرأي العام بالسياسة ، رغبته الشديدة في ايجاد ادب مصري موسوم بطابع شخصية الامة المصرية حتى تعد امتنا من الامم المستقلة الراقية مهما كان نظامها السياسي لان الاداب معيار رقي الامة .

(١) من مقدمة « ثريا » لعيسى عبيد .

(٢) مقدمة « ثريا » .

(٣) فجر القصة المصرية ليحيى حقي .

(٤) مقدمة ثريا .

على هذه المفاهيم الرائعة للقصة ولرسالتها ، اصدر عيسى عبيد كتابه الاول ((احسان هانم)) . والغريب ان ادباء ذلك العصر ونقاده ، تناوله بعضهم ، اقصد ابدى فيه بعض الملاحظات ، مجرد الملاحظات التي لا تنطوي على رأي او معنى سوى التفاهة وعدم الوصول الى شيء،فقد كانت كلها ملاحظات تنحصر في لومه على تصويره النزعات الجنسية والرغبات النفسية واغراقه في وصف اشخاص النساء مما يبعث ــ هكذا يقولون ــ على التقزز والغثيان . في حين هم يريدون صورا بريئة طاهرة تبعث في النفس التوق الى الفضائل.

ويؤكد عيسى عبيد انه رد على هؤلاء سلفا في مقدمته لاحسان‌هانم شارحا وجهة نظره بان ((واجب الكاتب الفنان تصوير الفن من حيث مطابقته للطبيعة لان الفن يجب ان يكون مستقلا ومحررا من كل قيد والفن لا يكون فقط في تصوير الجمال والكمال بل قد يكون احيانا في تصوير عيوب الطبيعة ونقائص المجتمع البشري)) . اما موقفه من اولئك الذين نعوا عليه اقتضابه القصص والنقص الذي شعروا به لعدم وقوفهم على تتمة الحوادث ، فهو يرى انهم غافلون عن غايته من كتابة القصص ، تلك التي شرحها في مقدمة احسان هانم ، بان غايته ((تصوير قطعة من الحياة الانسانية)) . غير انه لم يرد ان يتوقف بادبه عند هذا الحد فحسب وانما اكد انه قد يتتبع في قصص او روايات مقبلة حياة بعض الاشخاص الذين صور صفحة من حياتهم ، اقتداء بمشاهير كتاب فرنسا .

واذا كانت احسان هانم باكورة انتاج عيسى عبيد لم تلق الرواج المنتظر لها ، فلعل من الطريف ان يتحمس لها بعض الاوانس والسيدات لا اكثر . الامر الذي حمل الى الكاتب ، مع رسائلهن اليه ، بعض العزاء، حتى انه توجه اليهن بالشكر في نهاية مقدمته لثريا ، مقررا بانه ((لا يسعنا قبل الختام الا اسداء شكرنا لحضرات الاوانس والسيدات الفاضلات اللواتي شجعننا برقيق عباراتهن وعذوبة رسائلهن ، فان هذه العبارات الطلية الجميلة ملأت نفسنا قوة وايمانا وقضت على اليأس الذي اخذ يخامرنا من جراء اعراض الجمهور .. فلاجلكن يا سيداتي اقدمنا على جمع هذه الشذرات الانسانية وقطع الحياة الدامية المتناثرة وكل املنا وغايتنا ان تهز فيكن عامل الرحمة على من يوقعه القضاء تحت سلطتكن المستبدة الغشومة ! ..)) .

ولعل الاكثر طرافة هنا ، اننا بازاء كاتب افتقد قراءه الرجال ولم تمنحه ظروف مجتمعه السيئة الا عددا هزيلا من القراء السيدات .. فمال نحوهن يوثق الصلة بينهن وبين ادبه . فيكون عمله التالي مباشرة موضوعا ((نسائيا)) خالصا بطلته الاولى والاخيرة فتاة هي ثريا.والمتأمل لقوله : فلاجلكن يا سيداتي .. الخ، يجد فيه الدليل الواضح على سخرية الكاتب المريرة من مجتمع هذه حاله . الا اننا مع هذا نلمح بل ونلمس اصرار الكاتب الجاد اذ تجيش‌بصدره الاف المعاني والخواطر والاشياء الثمينة التي يود ان يهبها للناس ايا كانت مستوياتهم او انواعهم . وعيسى عبيد يبدو هنا واحدا من هؤلاء الكتاب الواعين الذين يدفعهم الصدق والاخلاص الى التشبث باي قارىء يلتقي معه ، رجلا كان او امرأة ، فالمهم لديه ان تبلغ رسالته . وحسب عيسى عبيد انه اطل على فئة من القراء ،صحيح‌انهم اوانس وسيدات ، الا انهم ــ وهذا هو المهم ــ قراء . لا ضير اذن ــ وهو الكاتب ذو الرؤية الفنية الشاملة ــ ان يخاطبهن بادب يتناول ذواتهن .. وكم هي حافلة حياتهن بالموضوعات والقضايا الجديرة بالتحليل والمعالجة . وها هو ذا الكاتب يقدم اليهن اولا والينا ثانيا ، بعضها ، وكله امل ، وغايته : ((ان تهز فيكن عامل الرحمة على من يوقعه القضاء تحت سلطتكن المستبدة الغشومة ! ..)) .

وثريا ، واحدة منهن ، او من كثيرات مثلها ممن يحفل بهن مجتمعنا في تلك الفترة الغابرة . فترةمن‌تاريخنا كانت الحياة فيها وقفا على‌طبقة معينة من الناس هي طبقة الاقطاعيين . تلك الطبقة التي شكلت خطرا عظيما على حياة البسطاء الفقراء من الكادحين ادى الى غليان حقيقي مهد لنجاح ثورتنا المباركة . وان الحياة في مثل هذه الفترة في‌اي‌مجتمع كان ، كثيرا ما تتفشى نزعة التطلع الطبقي ، بحيث يفني المتطلعون اعوامهم في محاولة التعلق باهداب الطبقا تالعليا ، وفي الحرص‌الشديد على الاستمساك بطقوس معينة يمارسها ابناء الطبقات العليا . ومن هنا يتحول المجتمع الى حلبة صراع غير شريف يخفي ابناؤه حقيقتهم خلف اقنعة زائفة ، وتتفسخ العلاقات بين الناس ، وتنعدم الانسانية تماما ، وتنعدم كذلك في النفوس كل الارتباكات العاطفية ولا يبقى بها سوى‌شيء واحد هو الايمان بالروح الفردية المقيتة . وتصبح الـ ((انا)) حلما كبيرا يلهث خلفه الافراد لمحاولة تحقيقه بصورة ترضيهم وتشبع‌ميولهم. على ان هؤلاء المؤمنين بالانا لو تأملنا تصرفاتهم ودخلنا في اعماقهم‌لاكتشفنا انهم ضحايا تطلعات طبقية تختلف من شخص لاخر ، ومن بيئة لاخرى . ولو ان ثريا ــ بطلة قصتنا ــ عاشت في مجتمع متواضع الحيوات‌بسيط التقاليد لما تحولت الى فتاة ضائعة تجري خلف سراب خادع . وعبثا تحاول جاهدة تحقيق حياة قائمة في رأسها استمدتها من تلك البيئة‌التي اوجدتها ظروفها ــ خطأ ــ بينها . وهي في سبيل تحقيق تلك الحياة التي تبدو براقة صاخبة رائعة لمن ينظرون اليها ــ مثل ثريا ــ وهم خارجها ، وان كانت في حقيقة امرها تافهة رخيصة لا قيمة لها ولا هدف منها سوى انفاق وقت ونقود فائضين ... نرى ثريا تتمسك بتقاليد اولئك الناس وتتشبث بدقائقها كما لو كانت هذه التقاليد وتلك الدقائق في نظرها هي الحياة التي تهفو اليها ، او كأنها ان نسيت استعمال‌تلك الطقوس بدت غير بنت الذوات التي صبت نفسها عمدا في اطارها . ان ثريا تستعمل الكلمات الفرنسية بكثرة خلال حديثها مع اي‌مخلوق،صحيح انها معذورة في هذا بعض العذر لان اباها الحقها بمدرسة فرنسية بعد موت امها وهي بعد طفلة لا تعرف الكلام . الا ان اباها كثيرا ما لامها على هذا الامر بل وانفق‌من‌وقته وجهده الساعات الطويلة ليعلمها اللغة العربية حتى تعلمتها ، ومع ذلك ظلت متشبثة باستعمال الكلمات الفرنسية لا لشيء الا لشعورها الداخلي بالخوف من‌الانفصال‌عن((الطبقة))

مفخرة العراق
مكتبة النهضة ببغداد
للطباعة والتوزيع والنشر
لصاحبها: عبد الرحمن حسين حياوي
اول مؤسسة ثقافية عراقية تعنى بنشر الآثار والمؤلفات العربية .
وضعت نصب عينيها منذ تأسيسها النهوض بالكتاب العراقي من حيث الاتقان في الاخراج والطباعة وجعله بمصاف ارقى المطبوعات .
تعتمدها جميع دور النشر والمكتبات اللبنانية في توزيع وترويج منشوراتها .
تحوي جميع منشورات البلاد العربية .
زوروها لتصبح صديقها الى الابد .
بغداد - شارع المتنبي - تلفون ٨٢٦٨٩

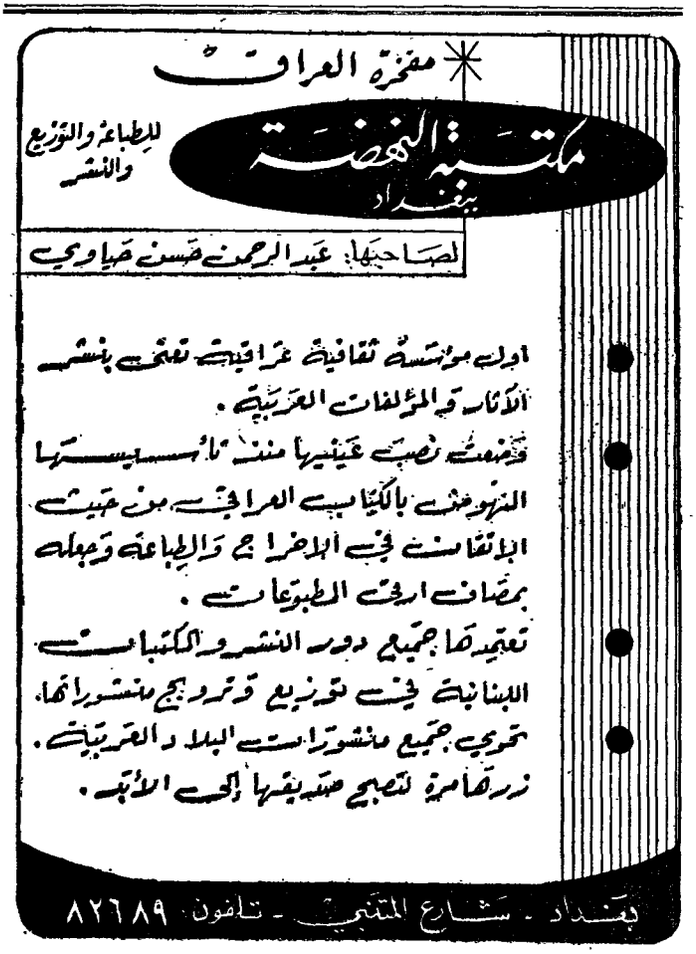

التي تنتمي اليها لو هي تخلت عن الكلمات التي تتخاطب بها واياهم . وابوها ، تاجر ، بورجوازي متوسط مع سبق الاصرار .. فقد كان متجولا صغيرا ودفعته احلام الثروة الى فعل المستحيلات حتى اصبح تاجرا كبيرا ، لكنه ظل يدين ببعض الولاء لبيئته الاصيلة ، التي لم يبق منها سوى حزمة من السنين انضغطت في جسد هزيل القي بعيدا عنه في القاهرة ، تلك هي شقيقته الست « لبيبه » الخياطة .

والست لبيبه فشلت في زواجها ، اذ حكمت عليها التقاليد البالية بان تتزوج رجلا لم يكن لها به علاقة حب او تفاهم او حتى معرفة ، واكتشفت فيه شخصا مريضا من ضحايا المجتمع المتفسخ سكيرا عربيدا، اذاقها مر الليالي ، وعلمها السهر لا في انتظار عودته ولكن من اجل تدبير مصاريف مزاجه بالعمل في خياطة الملابس . وقد ظلت مع هذا وفية له الى ان توفاه الله فبقيت بلا زواج الى ان ذبلت . غير انها اخيرا عثرت على مثال للزوج المطلوب، فاثرت ان تعوض تجربتها السابقة وتبعثها من جديد حية نابضة ولكن في شخص ابنة شقيقها . كان ذلك الزوج هو العامل وديع نعوم ، النجار اليدوي الذي سكن في شقة اسفل شقتها ورات فيه الاستقامة ودماثة الخلق . وزاد لديها الاحساس به بعد ان حدث بينهما الاحتكاك العملي ،فلقد طلبت منه ان يصنع لها «لافامانو» فانجز طلبها ورفض تناول اقل اجرة على عمله ، فاضطرت السيدة ان تقدم له مقابل هديته شيئا ثمينا من صنع يدها ، وادى ذلك الى صداقتهما ، واحبته كابنها ، وصارت خادمتها بتكليف منها تتولى خدمته.

وعلاقة وديع بثريا بدأت بلقائه « بصورتها » معلقة على حائط عمتها فانبهر امام روعتها وظل يحدق فيها كانه يقارن بينها وبين الصورة التي رسمها خياله لزيجة قرر ان يقترن بها اخيرا . وهو رغم انه يعيش في هذه الدنيا وحيدا بعد ان توفيت امه قبل ان يتحقق املها فيه بان يكون كما هو الان « صنايعيا » يقبض مرتبا من الورشة التي الحقته بها وهو صبي ، الا انه لم يفكر في الزواج رغبة منه في انشاء اسرة، وانما دهمته الفكرة كحل ، كمشروع علاج لمرض « النورستانيا » حيث نصحه الطبيب الذي عرض نفسه عليه اخيرا بعد انعزاله فترة طويلة عن المجتمع وانطوائه الشديد على نفسه وعلى وحدته القاسية . وتشاء الظروف ان تقع عينه اول ما تقع على .. ثريا . خلبت لبه «الصورة» البراقة واوقعت في قلبه وقعا شديد الخطورة . ومنذ ان انبأته الست لبيبه بانها ستبعث في طلب ثريا ـ اي الاصل ـ لتجيء تقضي معها اياما تؤنس وحشتها وهو يعد العدة للقائها ، ويرسم الخطط في ذلك ، وما اطرف خططه . لقد وضعها بحيث يبدو في نظرها « شخصية » ذات بال وحيثية ، وبماذا ، بنفس المفاهيم التي كانت سائدة وقتذاك ،وبذات النظرة التي ينظر بها الناس بعضهم الى بعض . نظر الى نفسه ، ثم ما لبث ان اكتشف ان الامر سهل وبسيط ، وميسور كذلك ، فما عليه الا ان يسحب مدخراته الضئيلة في دفتر التوفير ، ليشتري بها احتزام الفتاة له وتقديرها منذ ان يقع بصرها عليه ، ذلك لانه سيتمكن من دعوتها على الغداء في محل كبير وفخم ، ثم لا مانع من دورين من البيره ، بالاختصار سيبدو امام ثريا ومن ثم يحظى برضائها ، كان الامر في نظره لا يتعدى الشراء ، الشراء وحده هو المبرر لقبوله زوجا لها !

وما كادت خادمة الست لبيبه تزف اليم خبر وصول « ثريا »حتى كان في قلب الشقة وهو من فرط الفرح لا يتمالك نفسه . ولحظة ان وقع بصره على « الاصل » تلاشت « الصورة » من ذهنه تماما .. وتلاشت معها كل الخطط التي رسمها .. بل وتلاشت كذلك شخصيته نفسها .. وضؤل في نظر ثريا ولم يبد سوى ذلك الولد الطيب الساذج. والحق انه رأى امامه شيئا لا يمكن ان يمت اليه بصلة ، شيء من المستحيل ان يلتقي به . ان التي امامه ليست بشرا ، انها تمثال رائع من الجمال والفتنة يذهب العقول وفي ذات الوقت لغز اي لغز ، كل ما يتفوه به غير مفهوم لديه . كما وانه هو الاخر بدا في نظرها تمثالا طيب القلب والسريرة ، اما كونه يصلح زوجا لها فهذه فكرة ابعدتها تماما عن ذهنها بل انها استنكرت حتى مجرد التفكير فيه . وكان لرأيها النهائي وقع بالغ الاثر في نفس عمتها . ولشدة حب العمة لوديع واقترابها منه وايمانها به لم تشا مكاشفته حقيقة رأي الفتاة فيه خشية ان تخدش كرامته ، وانما اكتفت بجواب متردد القت فيه اللوم على الاب والصقت به السبب . ولكن الحال قد بلغ بوديع ذروته ، ولم تعد المسالة لديه مجرد رغبة في الزواج يمكن ان تنجح ويمكن ان تفشل ، بل صارت في اعماقه شيئا لا بد من تحقيقه لكي تستقيم حياته فيما بعد ، وداخله احساس بان بامكانه مصارعة اية قوة كيما يحصل على تلك الـ «ثريا»، صحيح انها حلم شاهق ، وانه بالنسبة لها ما يزال قزما ضئيلا، ولكن ما المانع في ان تكون له ما دامت هي ـ وهذا هو المهم ـ لا تمانع في قبوله . السبب اذن في ابيها .حسن ، فليذهب خلفها الى الاسكندرية ويحطم ذلك السد المنيع الذي يحول بينه وبينها . لسوف يحميها ويحمي سعادته بجانبها من اي قوة في الوجود تبعدها عنه او تبعده عنها،انها حلمه ، خياله ، شفاؤه ، بل ان حياته بكل حذافيرها اصبحت فيها هي ولا بد ان يعيشها مهما كلفه الامر .. هكذا اندفع مقررا امام العمة التي اخذت تستحلفه الا يفعل شيئا من هذا . فادرك الفتى من فوره سر الكارثة .

ولكم كانت رائعة تلك اللمسة العبقرية التي شكلت موقفا دراميا في غاية الاهمية احاط الكاتب بكل دقائقه في حذق ومهارة . فنحن في تتبعنا لتكوينات شخصية وديع ولدقائق حياته وتطورها منذ كان طفلا صغيرا لا يتعدى حلمه « يومية » يقبضها ويعطيها لامه تنفقها على حياتهما، الى تطلعه الشاهق الى تلك الـ « ثريا » التي توهم ان فيها حياته كما يهوى ويشتهي وهو لا يعلم انها ربما تكون وبالا عليه .

لم يكن من الغريب ان ترفضه ، هو الذي لا يرقى الى مستوى تطلعاتها . ان الغريب حقا هو ان كلا التطلعين واحد ، كلاهما غبي ، اجوف ، غير مبطن بقيمة ، اللهم الا الاغراض الذاتية الشخصية التي لا

يطلب من دار الكاتب العربي في بيروت
ومن المكتبات الكبرى في البلاد العربية
ثمن الاجزاء الاربعة ١٩ ليرة لبنانية او ما يعادلها

تعني سوى تحقيق الـ « انا » . وان كان ثمة فرق بين تطلعها وتطلعه فلعله في صدق الفتى في ارتباطه العاطفي بها بوصفه طيب القلب سليم النية والطوية ، بينما هي تريد اقتحام الحياة التي تصبو اليها ، من اي باب يصادفها وتراه مطلا على الثروة .

وها نحن نرى اخلاص وديع لم يتزعزع ، ولم يهبط حماسه امام توسلات العمة . فيسافر ليبحث عنها على شواطىء الاسكندرية . والجدير بالملاحظة انه التقى بها هناك وهي تمد الشباك لاصطياد نسمة هبت عليها آتية من « العلالي » ولكنها كانت نسمة سخيفة بعض الشيء وثقيلة ، متجسدة في شخص « احمد بك » ابن احد الاثرياء الكبار ذوي الحيثيات في الدولة وفي سياسة الدولة ، وقد دفعه اشتهاؤه لهذا الجسد اللدن الرائع ان يتودد اليها بكلمات طروبة انتشت لوقعها الفتاة .. وكانت انفاسه الملوثة باغراضه الخبيثة تكون ابتسامته اللزجة المعلقة على شفتيه بلون شاحب مقزز . وفجأة ، هبت من الخلف انفاس الصدق والعاطفة المشبوبة صادرة من اعماق ملؤها الصفاء والمحبة ، تجسدت في عبارات خشنة غير منمقة ، متعثرة في التعبير عما يجيش به صدر صاحبها .. نطق بها وديع مناديا ثريا .

انزلقت الفتاة لحظتئذ بين قوتين متضادتين . الاولى يشكلها ذلك التعبير المهذب البراق المنطلق ، المزيف . والثانية يشكلها تعبير خشن منفر متعثر ، ولكنه صادق كل الصدق . وكان من الطبيعي ان تكون الغلبة للقوة المزيفة الخادعة ، فالبريق دائما يخطف الابصار ، وبطلة قصتنا لم ينخطف بصرها فحسب وانما هي كالفراشة القت نفسها في الضوء وفي غيها ان تكون قبسا منه . وقد انسلخت ثريا من الموقف المفاجىء برهة جزعت لقدمها ، وانفلتت تتصنع البشاشة ، مرحبة بوديع الذي كان يجاهد لحظتها ليكشف عن نفسه بشتى الانفعالات والتصرفات المكبوتة على جمر من النار . وفي كلمة ونصف كانت قد سلمت وابدت شوقها وبعثت السلام الى عمتها واستاذنت وشرعت تجري خلف الامل المنشود الذي اضطر الى الانصراف ، قبل ان يغيب عنها .

وعاد وديع يتعثر في كارثة : هم وغم وغلب .. وطاقات من الالم تنفجر من اعماقه وتحدث دويا هائلا . انه دميم الخلقة ، مشوه الجسد بعض الشيء ، وقد كان يتوق الى لمسة جمال ، جمال من اي نوع كان ، حتى لو استطاع ايجادها في قطعة خشب بين يديه اذن لسواها ومعجنها وظل يغوص في اعماقها بكل الاساليب كيما تتحول الى شيء جميل . فما بالك والجمال كله كان على وشك ان يمتلكه بين يديه ؟ اه .. ما بال الجمال ينفر منه ، الان شكله منفر حقيقة ؟ .. الى هذا الحد اذن!

اخذت الايام تمر عليه ثقيلة مضنية . اما العمة فقد اصيبت بما يشبه اليأس التام من ابنة اخيها التي اعتبرتها في حكم المنتهية بعد ان رفضت وديعا . وكانت هي في الاسكندرية قد وثقت صلتها باحمد بك واحكمت حوله الشباك وزاغت منه وقهرته حتى جذبته الى المأذون . وسجل المأذون عقد قرانها ، وسجلت اللحظة عقد نهاية مدة اقامة ابيها في الحياة .. فذهب غير راض عن هذه البنت المارقة . واشتد الحال سوءا بهم كلهم . فوديع لم يكن ليستطيع الصبر على ما هو فيه . والعمة استيقظت اخيرا بعدما علمت بما تعانيه البنت من ضياع وانسياق نحو المجهول الغامض وقد اصبحت وحدها ، حتى زوجها نفسه تأكد لديهم انه غير موثوق فيه البتة ليملأ اي شيء فضلا عن ان يملأ فراغا ما ، فهو مجرد ريشة في مهب ريح تحركها كيف تشاء ، لا وزن له ولا قيمة على الاطلاق ، كتلة ادمية لا عمل لها سوى الاستغراق في البحث والتنقيب عما يسفح الوقت باي ثمن وعلى اي حساب . واحس وديع بمأساتها ، فشد رحاله مرة اخرى ليبحث عنها . وهناك ، على الشاطىء وامام الكابين ، لمح طيفها من الشباك فاخذ قلبه حينئذ « يخفق خفقانا شديدا متواليا ، وكانت الحفقات تحتضر بشدة في حنجرته ، ثم رأى احمد بك يتابط ذراعها ويسيران في طرقات الحديقة الجميلة ، وكانما اراد ان يختلس منها قبلة فصفعته برقة على خده وولت هاربة عنه بوجهها ، فادرك وديع نعوم ان احمد بك ما زال يحبها وانها لم تستسلم اليه استسلاما يقضي بسرعة على حبه ويخمد حواسه ، فنزل هنا وديع من جدار السور مطمئنا مرتاحا صائحا : انه لن يطلقها قبل سنتين .. وساكون غنيا في هذه المدة فان ادعها تشقى ، ورجع الى مصر وفتح له ورشة كبيرة واخذ يجد ويسعى بنشاط مدهش سعيا وراء الثروة » .

ولو لم يضف الكاتب هذه الجملة الاخيرة : « واخذ يسعى بجد ونشاط مدهش سعيا وراء الثروة » لتغير مفهوم القصة تماما . ولكنه بهذه الجملة ـ في تقديري ـ يؤكد ما ذهب اليه في اول القصة ويحدد او بمعنى ادق يترك بطل قصته يحدد ، موقفه من الحياة المحيطة به . فوديع هذا ما هو الا بذرة طيبة صادقة لعامل باليومية منتهى امله ان يعيش مستريحا وبين يديه كل متطلباته ، وهو في سبيل هذا ، وفي سبيل هذا فقط ، يعمل مخلصا جاهدا كيما يحقق تلك الامنية يوما بعد يوم .. وهكذا لا يحيد عن نفسه ولا تحيد عنه نفسه ، وحسب اجتهاده تتحقق امنياته . وليس ما يمنع ان يتدخل في حياة وديع او في حياة اي انسان ، حادث مثل حادث ثريا ينتهي نفس النهاية ويكون حافزا على الاجتهاد الشريف كيما يصنع من نفسه شيئا ذا بال ، وربما ، في زحمة الحياة ، تستغرقه رغبته في تحقيق ذاته فتنسيه كل شيء وتتحول ايامه باحداثها الى ذكريات باهتة وتكون ثريا ، او غيرها ، قوة دافعة للنجاح والتقدم . الا ان الكاتب في قصتنا بجملته الاخيرة : « سعيا وراء الثروة » يحدد بصراحة متناهية ان بطله قد تحول تحولا تاما عن الاتجاه الذي كان يسير نحوه من قبل . وشاء ـ بارادته ـ ان « يحصل » على الثروة . وغني عن التفسير ادراك مدى خطورة اتجاه كهذا . ولكن ابسط الامور ان الثروة حينما تتحول الى حلم لا بد من تحقيقه .. يذهب في سبيلها كل شيء عزيز يمتلكه الانسان .

لكاني بالكاتب ها هنا يضع امام اعيننا « وثيقة » تدين الوضع وتنعى انهيار المجتمع وتفسخه حينذاك . فليس احق بالنعي من مجتمع تزرع ظروفه القائمة في قلوب ابنائه شهوة امتلاك الثروة ، مجرد امتلاكها لا اكثر .

وهذه القصة التي كتبها عيسى عبيد في يوليه ١٩٢٢ ، لتدل دلالة واضحة على انه فعلا كاتب ذو هدف ، ورسالة ، وانه كان بسبيل تحقيق رغبته الشديدة في « ايجاد ادب مصري موسوم بطابع شخصية الامة المصرية حتى تعد امتنا من الامم المستقلة الراقية مهما كان نظامها السياسي » . ومما لا شك فيه ان الضمير الادبي ـ في رأيي ـ يكرم هذه التجربة الرائدة . ان قصة كهذه تكتب في ذاك الوقت ، لهي طاقات جبارة من طاقات النور في فجر قصتنا المصرية الحديثة .

خيري شلبي

في السودان

اطلبوا

« الاداب » ومنشورات « دار الاداب »

من مكتبة الاداب

لصاحبها الاستاذ التيجاني عامر

ام درمان ـ شارع الاشبيالية الملكية